

الأمة اللبنانية، وطن وهوية

الأبعاد الطبيعية (الجغرافية) للقومية اللبنانية

تستند بعض الأفكار القومية، في إتجاهها نحو تذويب الكيان اللبناني في محيط أوسع، إلى نقطتين أساسيتين: الأولى هدف التكتل الإقتصادي والسياسي الموسع لجمع الموارد المنتشرة على بقعة واسعة من الأرض. والثانية إيجاد نقاط مشتركة قدر الإمكان بين الشعوب هذه البقعة الموسعة لصرها في أمة واحدة. لكنها لم تكتف لتبحث إن كان هذا التكتل يستند الى مقومات تاريخية مشتركة، أو إن كانت المكونات الحضارية الجامعة للشعوب القاطنة في هذه البقعة قادرة على صهرها. فوُجعت، من الناحية المبدئية، بتناقضات وقصور صارخ، ومن الناحية العملية بارتباطات وامتدادات تخدم قوى خارجية على حساب الوطن.

لن ندخل في مناقشة القوميات التوسعية في نظرياتها السورية والعربية وغيرها، فلا اللغة الرسمية للبلدان تستطيع أن تلغي الفرادة الحضارية والتاريخية والإنسانية والبيئية للأمم وشعوب المنطقة، ولا توسيع رقعة الموارد الطبيعية تكفي لتجاهل الهويات القومية الأصيلة، رغم عمليات التزوير السياسية التي ما زالت تعصف منذ قرن وأكثر - مهما كانت الغايات التي تخدمها. فدراسة الأبعاد التاريخية والطبيعية والإنسانية للقومية اللبنانية كافية لنقض جميع النظريات الواهية.

يجب على الباحثين في الأبعاد الجغرافية للأمم تخطي النظريات المسطحة - الثنائية الأبعاد - الى نظرة أكثر شمولية. فاليوم، ومع تطور العلوم، أصبح للوجود 4 أبعاد: الشكل الآتي الثلاثي (طول وعرض وارتفاع) بالإضافة الى الوقت (كمقياس للزمان). وهذا ما أدركه كبار المنظرين في العلوم الإنسانية حتى قبل تأكيد الواقع الجديد في العلوم التطبيقية (نظريات أينشتاين ولورنتز وشروينجر ورنشو...). ف" الإنسان ابن بيئته " كما قال ديكارت، والمقومات الطبيعية للمجتمعات نجم بين 4 أسس ضرورية :

- 1- الإمتداد المسطح (على الخريطة): يقرر الموقع والمساحة والحدود.
- 2- الإمتداد العامودي (الطوبوغرافي): يحدد البيئة الجغرافية.
- 3- المناخ : يحدد البيئة الطبيعية.
- 4- الإمتداد الزمني: يحدد ديناميكية التفاعل الإنساني ضمن الأسس السابقة على مدى العصور.

تجدر الإشارة الى أن قصور القوميات السورية والعربية وغيرها من الناحية "الجغرافية" تعود الى تبني الإمتداد المسطح الثنائي الأبعاد، وتجاهل الأسس الأخرى.

الإمتداد المسطح والعامودي للبنان:

رغم ثبوتية لبنان ككيان تاريخي، فقد اختلف مدى إمتداد كيانيته عبر التاريخ، فكان يبلغ أوجه أيام الفينيقيين، حين كان البحر الأبيض المتوسط "بحيرة لبنانية"، وأحياناً أخرى إنحسر في سلسلة جبال لبنان الغربية أيام الإحتلال العثماني، وذلك بسبب الظروف السياسية التي مرت بها المنطقة عبر العصور... حتى استطاع اللبنانيون، في تاريخ لبنان الحديث، الحصول على إعتراف دولي بسيادة لبنان على 10452 كلم مربع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط، بحدوده الحالية.

تحتوي هذه المساحة طوبوغرافياً على:

- السهل الساحلي اللبناني
- سلسلة جبال لبنان الغربية (المعروفة تاريخياً بـ Libano)
- البقاع (السهل الداخلي المرتفع، نشأ نتيجة الأخدود الأفريقي الآسيوي)
- سلسلة جبال لبنان الشرقية ("لبنان المقابل" أو Anti-Libano)

وتتميز هذه البيئة بوضوح عن الصحاري الداخلية، وتظهر بفرادة مطلقة كبيئة جغرافية مستقلة.

المناخ:

تتالي الفصول الأربعة على السهل والجبل والشاطئ، إضافة إلى الإعتدال المناخي مع ديناميكية عوامل الطقس المتوسطية (الرياح والأمطار والحرارة...)، تخلق طابعاً مميزاً للبيئة اللبنانية. والإنسان اللبناني إبن هذه البيئة التي تعطيه شخصيته الفريدة.

الإمتداد الزمني:

إنه خلاصة الواقع الطبيعي للبنان وكيفية تفاعل الشعب اللبناني - إنطلاقاً من موقعه الطبيعي - مع محيطه. فمن الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، انفتح اللبناني - وهو في وسط العالم - على الحضارات الأخرى. وكبحارة من الطراز الأول، سيطر اللبنانيون في العصور القديمة على حركة الملاحة في البحار، ونسجوا علاقات ثقافية وتجارية مع الأمم المتوسطية. فنشروا العلم والمعرفة أينما حلّوا، وكانوا بذلك أول الفاتحين في التاريخ، ولكن بالكلمة لا بالسيف. فانتشرت المستعمرات اللبنانية في اليونان وأوروبا وشمال أفريقيا منذ آلاف السنين.

تجدد الإشارة هنا، إلى أن القارة الأميركية، بشقيها الشمالي والجنوبي، قد اكتُشفت من قبل الفينيقيين، وتركوا فيها آثارهم، وهذا ما نشره المؤرخ الأميركي B. Fell في كتابه "America B.C."، حيث وثق بالأدلة آثاراً فينيقية ونقوش، ودراسات أركيولوجية لخبراء مثل Erick Reinert:



The Bourne Stone, recording the annexation of Massachusetts to Hanno, a Punic suffete (king or governor) who may or may not have been the same as an historical Carthaginian suffete of that name.



Engraving in Iberian-Punic text found a thousand miles inland in caves in Paraguay tells "Inscription cut by mariners from Cadiz (Gedeth) exploring."

Note: Erik Reinert, archaeologist indicates that the Paraguay River was navigable then.

نقوش فينيقية في الباراغواي وماساتشوستس

إنّ، للبنان بيئة طبيعية تميّزه عم محيطه، وإمتداد جيو-تاريخي يترافق مع دوره الحضارة عبر العصور، وصل إلى أقاصي الأرض، ممّا يثبّت الأبعاد الجغرافية للهوية الحضارية اللبنانية ويربطها بتاريخه.

حتىّ بإكتمال الأسس التاريخية والجغرافية للهوية اللبنانية، لا تقوم القومية إلاّ بأسس إنسانية واعية لتاريخها وأرضها. فالأمة اللبنانية تاريخ وأرض وإنسان ومؤسسات، و " في الكلّ وقبل الكلّ وبعده، لبنان " (الياس مطر، في مقدّمة كتاب "فصول في الوعي القومي").

شادي الزغبى